المكتبة ببلدية غارداية
8/0302

الفتى

قصة ادبية اصلاحية . ومرآة جزء من حياة شاب يسعى لاعزاز شعبه وترقية امته

الحاج اسعيد محمد بن ايوب
غرداية ميزاب
HADJ-SAID Med Ben Youb
GHARDAIA M'ZAB

(بقلم)

(رمضان حمود بو.. سليمان)

الميزابي الجزائري

لطف الله به

جهودك يا فخر العروبة عبرة * لها رنة في الخافقين تقام
ستبقى على مر الدهور منارة * على علم لا يعتريها ظلام
ففي سعيك المبرور خدمة امة * عليها خطوب يرتمين جسام
حياتك سر سوف يظهر كنهها * وفيها لسير الناشئين نظام

ملك جمعية
أولاد إسحاق وإبراهيم أطفيش
لخدمة التراث

(المرحلة الاولى)

حقوق اعادة الطبع محفوظة للمؤلف

المطبعة الاهلية نهج الديوان عدد ٥ تونس

١٣٤٧ - ١٩٢٩

1837

* الاهـداء *

الى من كان السبب في وجودي !

الى من ربياني صغيرا ومد الي يد المعونة كبيرا !

الى من غمرتني نعمهما وطوقتني اياديهما !

الى من برضاهما ينشرح صدري وينطلق لساني ! ويفقه قولي ويثمر عملي !

الى من يجب ان اخفض لهما جناح الذل من الرحمة !

الى ابي وامي !!

اهدي قصتي هاته كباقة زهر عبيرها الاعتراف بالجميل والاخلاص النهائي

ولدكما البار : رمضان حمود

اخذ الله بيده

وما اردت بها إلّا الاصلاح

القصة عامة لم اقصد بها شخصا معينا ولا وطنا خاصا وكل ما ورد فيها من الاعلام هو مجرد تمثيل وتنسيق . وان كانت مصبوغة بلون بلادي ومرقد اجدادي وان صاحبها عاش حقيقة ولم يزل يذب عن حقوق امته فان العبرة بحوادثها لا غير .

هذا ما اوحاه الي ضميري وهذا ما ارجو ان يفهم وعلى الله قصد السبيل

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على رسول الله

(نشـــأتـه)

في قرية من قرى ميزاب الجميلة نشأ طفلا صغيرا يرتع ويلعب في حجر ابوين كريمين يحبانه حبا عظيما ويفتتنان به . ولا عجب فهو نور بصرهما وثمرة فؤادهما والزهرة الباسمة في رياض حياتهما والصلة المتينة بينهما .

وكانا لا يرجوان له الا حياة العلم لما اصاب تلك البلاد من الجهل والانحطاط فهما يذللان كل صعوبة ويجتازان كل عقبة في سبيل تلك الغاية المقدسة وذلك المطلب الشريف .

كانت امه تغرس فيه الفضيلة وحب الوطن من صغره فشب على ذلك وترعرع .

فاذا هزته في مهده او رفعته بين ذراعيها انشدت له ابياتا تروضه بها فتقول :

يا بني عش بين الانام عزيزا * لك روحي ومهجتي وفؤادي

بذراعي احميك طفلا صغيرا * سوف تحمي اذا كبرت بلادي

وبصدري اضم جسمك حبا * ستضم الفخار بين العباد

انت في المهد لا تطيق كلاما * عن قريب اراك في كل ناد

ترشد القوم اذ نسوا كل مجد * وتريهم بالعلم سبل الرشاد

انا اسقيك للنمو حليبا * سائغا شربه نكن للجهاد

وتذكر عند الشدائد أما * ان تأخرت طوقت بالقتاد

وقف في سبيل الله
لا يباع ولا يورث
الى يوم الدين

هكذا كان شانها معه حتى حبا ومشى واشتد ظهرت غريزته الحيوانية من الميل الشديد للعب وبات وهو الصغير سيد الدار وملكها المطلق ينقض ويبرم ولا يخالف امره احد . وكان لا يهمه من شؤون الحياة ومظاهرها الا التمتع التام بجميع حواسه الظاهرة والباطنة بجمال الكون وبدائعه فكانه يعتقد ويرى ان الطبيعة ام ثانية له تحبه وتحن اليه .

وقبل ان ينشد الطير قصيدة الصباح على مسمع الكون يقوم من فراشه بجانب جدته (لابيه) ويخرج من الغرفة الى فناء الدار كما تخرج الوردة الصغيرة من كمها لاستقبال ندى الفجر الباسم . فيغسل وجهه ويديه ثم يرجع الى جدته فيعلمها بان الديك - الذي كان يحبه كاخيه - له مدة وهو يزق . فتجيبه وتقوم لصلاتها وان كانت متيقظة من قبل تسبح وتستغفر الله على ما سلف من ذنوبها وتطلب من الله تعالى ان يصلح حياة حفيدها العزيز وان يفتح له باب المستقبل السعيد .

ثم يقصد غرفة امه فيخبرها ان اوان الصلاة قد حان فتنهض لعبادة خالقها بكل هدو وسكينة فيقوم على اثرها ابوه فيؤدي ما فرض عليه وكذلك كل من في الدار ذكوراً واناثاً يعبدون ربهم ولا يشركون به احدا

وفي اثناء ذلك يحيي تحية مباركة كل من اتم فرضه فيهشون ويبشون في وجهه سائلين الله ان يحفظه ويلهمه الدين والتقوى حتى يسن على سنن ابائه واجداده الهادين المهتدين .

وبعد ان تهيء امه له الفطور ويا كل ما قدر له بكل ادب تلبس له ثيابه وتنظفه احسن تنظيف مجتنبة كل تنميق زائد (وكان التكلف في الملبس والمطعم بعيدا عن اهل تلك القرية المباركة وتغلب عليهم البساطة والسذاجة في جميع مظاهر حياتهم لان طبيعة ارضهم اقتضت ذلك فهم لا يميلون الى البذخ والاسراف ومعيشتهم ريفية

لا يباع ولا يشترى
الى يوم الدين

اكثر منها حضرية وان كانوا يسكنون الدور الجميلة الا ان معظم عمرهم يسيل في الواحات والبساتين بين الاشجار العاليات والنخيل الباسقات يسقون ويربون ويحرثون ويزرعون .)

وقبل طلوع الشمس من مشرقها يجيء جد محمد ومعه آلات السقي على دوابه وهو رجل فلاح صحيح البنية تام الحواس طيب الخلق طاهر النفس لا يكسب من غش المدنية وفسادها قطميرا . همه الوحيد ان يرتزق من عرق جبينه وكد يمينه ويربي اولاده تربية دينية خالصة في حقوله وجناته الواسعة لا تحت سقوف الجامعات ولا بين جدران المدارس

يحمله جده امامه على ظهر دابته فيقصدون الواحات تاركين الركود في الدور - كما يقول اهل تلك البلدة - للنساء ومن يشبه بهن . فيقضي بياض نهاره في الهواء الطلق في غابات جده وان كان لابيه امثالها او اكثر الا ان العادة جرت في تلك البلدة ان الطفل اذا كان عزيزا واريد ان يتجب تركوه مدة طفوليته الاولى تحت رعاية وكفالة جده يغرس فيه من الفضائل وهو الشيخ الكبير ما اوحته اليه التجربة والايام الطوال اذ قد ربى وثقف اولاده الكبار قبل ان يصل اليه حفيده وصهارة عظمه

عند ما يصل الحقل لا تسكن حركاته ولا تراه جالسا على الارض الا نادرا فبينما هو يتسلق جذع نخلة ويتكبد المشاق الى ان يبلغ رأسها اذا هو يحفر بئرا صغيرا يسقي به بستانه الجميل ولا يترك شيئا يفعله جده الا ويحتذيه ويأتي بمثله على قدر طاقته وفي بعض الاحيان لا يروق في نظره عمل جده فيفسد ما فعل ويعيده على ذوقه من تبديل وتغيير وزيادة ونقصان في غيبته عن المكان ولا يصيب في كثير من الاوقات ولكن على كل حال كان يرى ان له نصيبا من التفكير الخاص امام فكر جده واستنباطاته فاذا جاء جده ووجد عمله ذهب ادراج الرياح سأله ما الذي لجأ بك الى هذا يا محمد

فيجيبه فورا : « انك يا جدي لم تات شيئا متقنا والعمل قد شكى الي في غيبتك ان اعيده ففعلت وليس علي حرج !! » فيرجع ما افسده الى ما كان وهو يتمتم في نفسه : « والله ما رايت فيمن ربيت مثلك يا محمد فذكاؤك نادر ونفسك طماحة وحديثك حلو !! » وكثيرا ما يحكي ما رأى من حفيده الى زوجته اي جدة محمد فيزيدان له حبا على حب .

ولم يكن يرافقه كل يوم الى حدائقه ففي بعض الايام يتركه في البلد بجانب امه فترى منه العجب العجاب وقد يعوقها عن الشغل فتضطر بعد الصبر الطويل لارساله الى جدته لانه كان يخشاها ولانها كانت تتحمل منه اقترافاته اكثر من امه . ولا يخفى ما للكبير على الصغير من مزية في الصبر والرزانة .

انه يحب امه حبا جما ولكن اذا ساعدته ووافقته على احلامه وامانيه اللذيذة واما اذا وقفت في سبيل رغائبه الحلوة فيراها بالعين التي ترى منها الزهرة الباسمة الجليد النازل من السماء الذي يريد القضاء عليها

على ان امه الشفوقة كانت لا تنهاه الا عما يضر به وهو لا يدري للضرر معنى وانما الدم الحار الجاري في عروقه الرطبه يملي عليه فصولا جميلة يرى من الحق تمثيلها للعيان وتنفيذها في الخارج بغير فكر ولا قيد .

ان امه تحبه وتسهر على مصالحه في كل آن وفي بعض الحالات يظهر انها تتألم منه لميله الى رايه الخاص ميلا شديدا اكثر مما يمتثل لاوامرها . فكانه يرى منذ صغره ان المرء لا ينجح في حياته ولا يبلغ غايته الا باتخاذه رايا خاصا تزنده قريحته الوقادة فان اصاب المرمى فذاك وان اخطأ فالتجربة تربيه وتهذبه .

تنهاه امه عن الصعود في السلم خوف السقوط ولكنه لا يمتثل فيسقط وربما جرح فتواسيه ثم توبخه بعد ذلك فاذا غابت عنه كرر فعلته الاولى ناسيا ما مضى او متعمدا

فلا يلبث ان يسقط فتاتي امه مرة بعد اخرى مربية له فيجيبها وقلبه مملوء بحب ما يصنع وغير مبال بما يحدث : « اتركيني ! اتركيني ! اصعد يا اماه ! فالجرح يبرأ ويلتئم ! ! » فتارة لا يسعها الا الرضوخ امام رغائب ابنها العزيز وطورا تمنعه بالزجر ولكنه لا يلبث ان يقترف شيئا اوحته اليه رأسه الطائرة في سماء الاحلام ولم يخطر ببال ابيه او امه

فاذا لم يجد شيئا امامه يتسلى به قام الى الهرة المسكينة وجذبها بعنف وركب فوقها او جر ذيلها فاذا ثارت تلطف معها (مدركا بعين رأسه ان القوة والعنف لا يفيدان ولا يجران لصاحبهما الا الهلاك والبوار) فتراه يداعبها كأن يلقيها على ظهرها او يرفعها بين يديه او يحك رأسها (هكذا شان القوي الجبار مع فريسته اما ان يستولي عليها بالبطش والقوة وهو نادر او بالدهاء والمكر والخديعة) ولكنه لا يسلم من شرها دائما فكثيرا ما تنتقم لنفسها بنفسها فتفلت من بين يديه القاسيتين وهو ينتحب ويبكي لما اصابه من مجرح بمخلب او عضة بناب . لا يتأسف ولا يندم على ما فات لانه قضى وطره منها فاذا نال ما نال فانما هو عما اسلف من لعب وفكاهة . اذ المرء لا ينال ما يريد ويشتهي الا بعد الصبر على المكاره وعدم الخوف مما يعتريه في سبيله من الالم .

وكان شغوفا بسماع الحكايات والخرافات التي ترويها بعض العجائز لتسلية الصغار وتثقيفهم في بعض الاحيان الا انه لا يعير مسمعه وفكره الا الى ما كان موضوعها ذكر الشجعان والابطال والحروب يسمع الحكاية في الليل من جدته واذا اصبح الصباح سمى نفسه ببطل من ابطالها ونادى اصحابه فاملى عليهم ما سمع وسار بهم في حديثه الى امد بعيد من التصورات والخيالات فما تراهم الا ملتفين حوله خاشعين منصتين كان على رؤوسهم الطير لما يبديه من تحمس وتصوير خلاب . وقد ينظم منهم جيشا ويسير به الى مقارعة عدو وهمي او يفرقهم الى كتيبتين فتتصادما وتتقارعا وهو

في اثناء ذلك البطل المغوار ! ! والقائد العام المحرك للميدان ! !

ومن هنا نرى من الواجب على الامهات ان اردن العظمة لاولادهن وافلاذ كبدهن ان لا ينفثن في عقولهم سموم الخرافات المضرة بالاخلاق والتربية والعقل بل يتحتم عليهن ان يروين لهم ما يثقفهم ويغرس فيهم روح الفضائل والمكرمات كتاريخ العظماء والابطال وفي مقدمة ذلك تاريخ وحياة سيد المرسلين وخاتم النبيئين محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم .

فالدرس الذي تلقيه الام بلغة التسلية لولدها عند نعومة اظفاره هو الذي يقود زمام حياته في مقتبل عمره فلتختر الام ما يحلو والعاقل من تبصر في العواقب ونظر الى ابعد الغايات .

لم يكن محمد رغم ما اسلفنا من حبه الزائد للعب يعصي امه فاذا بعثته الى قضاء بعض الحوائج وهو قادر عليها قام بها احسن قيام بامانة واخلاص ونشاط ثم هو لا يتردد لحظة واحدة في قبول ما تعطيه من الارشادات والاخلاق كان تقول له لا تلعب في الطريق مع ابناء السبيل ولا تتكلم مع من هو اكبر منك سنا واذا رأيت جماعة من الناس ملتفين حول بعضهم فلا تمر من وسطهم وسلم عليهم واذا رايت شيخا كبيرا او اعمى وضل عن الطريق فاهده بكل لطف الى السواء ثم اقبل الى غايتك بغير تراخ ولا فتور واذا وصلت الى من بعثتك اليه فلا تدخل منزلهم حتى تستأذنهم فان اجابوك فسلم والا فارجع . اياك وقبول العطايا مهما كانت ومن اي شخص كان ومن قال لك شيئا فاخبرني . وكان اذا سمع هذا الحديث همه كثيرا فيطلب من امه ان يعيده على مسمعها خشية النسيان فتجيبه لذلك . فيفسر ويشرح ويعاق وقد يغلط في بعض المواضع فتنبهه فيرجع ولكنه اذا احس انها تشددت معه في الجزئيات الضئيلة قال لها :

« اتركيني اكمل حديثي يا اماه فانا اعرف كل شيء وعقلي اكبر من دارنا . »

سالت حياته الاولى على هذا المنوال في جداول الصبا تحفها عناية الخالق والوالدين الى ان ناهز السادسة من عمره طارت اليه اول شرارة من جهنم الحياة فاخرج من نعيم بلاده حيث امه واقرباؤه الى ارض الغربة والمحن فهذبته وصيرته شابا يعرف من اين تؤكل الكتف .

* سفره *

ففي ذات يوم بينما كانت امه تنظفه وتلبس له ثيابه يقول لها : « انا لا احبك يا اماه لانك تمنعينني من اللعب بما شئت وفي اي وقت اردت . » فتجيبه : « كيف لا تحبني وانا احبك كثيرا » - انت تحبينني لانك رايت ابي يحبني ولانك تضربينني وانا لاضربك . وهنا تدفعه بلطف قائلة : « فانا اذا لست امك فقم واطلب اما غيري » فيلصق بذراعيها ويجذب راسها اليه ويقبلها والعبرات تسيل على وجنتيه الموردتين قائلا : « لا لا اسمحيني يا اماه انت لي وانا لك كل شيء انت احبك اكثر من فرسي وبستاني ومن كل شيء يملكه ابي وجدي فاذا مت مت معك ولا اتخذ اما غيرك ! ! »

فتبكي لهذا الاحساس الشريف والحب الصادق وتخفي دموعها بمهارة خوفا من ان يطلع عليها فتكدر صفوه وهذا ما لا تتحمله .

ولكنه كان ذكيا فتقع في شركه اذ يسألها - لماذا تبكين يا اماه هل اصابك مكروه - لا ! ! - ولماذا اذا ؟ - لا اعرف ! - اجيبيني يا اماه فانني لا اقوم من حجرك الا بعد ان اعرف سبب بكائك - دع عنك هذا الشان فان فرسك وسيفك يدعوانك - ان فرسي يدعوني اذا علمت ما جرى لك - يا بني ابكي لانني احبك ! - وهل الحب يبكي يا اماه ؟ - نعم - انا لم يطمئن قلبي لذلك - ولماذا ؟ - لانني اراك تبتسمين اذا ضممتني الى صدرك وهذا كما اعلم غاية الحب

وهنا اذا ذكر لها الضم والحنان لم تتمكن من كبح جماح نفسها فيفور بركانها

وترسل من الدموع مدرارا حتى تقع على وجه ولدها البائس فتصحب نحيبها الاليم بكلمات متهدجة متقطعة : «لا اقدر ... لا اتحمل ... فراقك ... يا قرة عيني ... وثمرة فؤادي ... الموت اهون علي من ذلك ... !! »

يرى تلك المأساة تمثل امامه وهو جامد صامت لا يفهم منها الا ما كان باديا على وجهها من تحولة يخالطها شيء من الاصفرار الذي لم يعهده قبل في وجه امه الباسم

ولما شعر بدمعة تترجرج في مقلته شفقة على امه خجل من ابدائها خوفا من اظهار الضعف لها (فالهمة وهي رأس ماله كانت ترفعه وهو صغير عن مواطن الضعف حتى مع اقرب الناس اليه واعلمهم بخفاياه . وتلك شيمة النفوس الكبيرة فان العظمة ممزوجة بها منذ الحداثة)

وامه لم تزل تمعن النظر فيه وتتنهد تنهدات متوالية حارة يذوب لها قلب الجماد . ولكنه لما رأى الموقف قد انقلب الى مأتم غريب وبكاء ونحيب قام مسرعا الى فرسه الخشبي وامتطى صهوته وطفق يدور في الدار وينادي : « قولي يا اماه من مسك بسوء لانتقم منه انتقاما مرا واعذبه عذابا شديدا . انا احميك من شر اولئك الذين يكدرون حياة الناس ويفسدون عليهم عيشهم . ان هذا لظلم عظيم . قولي فالمسؤولية راجعة علي وعلى هذا الفرس ان لم تري منا العجائب . وامه لا تجيبه ولا تلتفت اليه بل ما زادها ذلك الاها على همها الكامن واسترسالا في بكائها الاليم

وبينما هو في تلك الحالة ضوضاء قائمة الى عنان السماء وكروفر وزمزمة وهدير اذ دخل عليه ابوه فما انتبه الا وهو محمول بين ذراعيه فقال له : « ما بالك يا محمد ؟ وما هاته الجعجعة ؟ - اتركني يا ابتي فاني اقوم بواجب هام - يا لك من بطل مهذار فما هو هذا الواجب ؟ - واجب يهمني ويهمك.... اتركني فان الفرصة ربما فاتتني - ما ذا تقول ؟ - ان فرسي على وشك الفرار - لا باس دعه يفر - قلت لك اتركني فان شئت

استفسار امري استأذنت امي في ذلك - افعل ما بدا لك . وهنا يطلقه ابوه فيرتمي على صدر امه قائلا : أأخبر ابي انك كنت تبكين ؟ - خبره فاني بكيت عليك لانك ولد تحب اللعب كثيرا ولا تسمع نصائح امك . فيجمد في مكانه حياء وخجلا

ثم بعد ذلك يلتفت ابوه الى امه ويقول لها : ان اصدقائي ورفقائي عن لهم ان نسافر قبل الجمعة وهل جمعت اثاثي مع ثياب الطفل في الحقيبة الكبيرة كما اشرت ؟ فتجيبه بنعم تغمره العبرات حتى لا يكاد يسمع . وحينئذ يفهم محمد كل شيء ويرتمي على ابيه وهو يقول : يا ابتاه اني احبك اكثر من امي لانك ستحملني معك الى بلاد نائية حيث المال والعلم ... وافرحتاه ... !! - ومن قال لك يا « جن » انك ستسافر معي - اني فهمت ذلك من خلال كلامكما - نحن لم نقل شيئا - اذا فانا اعرف شيئا تجهلانه انتما - حسن يا بني .

مضى ذلك اليوم الذي كان اسود على امه واتى اليوم الذي بعده امتلات الدار باقارب محمد فمن جدته الى جيرانه (عادة في تلك البلدة ان الاقارب من الجنس اللطيف يقصدن بيت المسافر ويقضين يوما كاملا مع اهله لاعانتها على قضاء حوائج زوجها وتسليتها من هم ما تجد).

كان محمد في ذلك اليوم شعلة تلتهب لا يستقر على حال فآونه يقبل جدته ثم عمته واخرى يسأل الباقيات عما اتى بهن فهو لا يريد ان يرى النساء لانهن لا يجتمعن الا على البكاء . اما امه فانه لا يقترب اليها لانه رآها خاضت في بحر من الهم لا ساحل له فتركها وشانها (هكذا بدأ قلبه يتحجر كانه كان يدرب نفسه على ما سيلاقي من كوارث الدهر وصروفه) ولكن امه ضاق صدرها فاحتالت له واخذته ووضعته في حجرها لآخر مرة فضمته الى صدرها وبكت عليه حتى كاد يغشى عليها وكانت في اثناء ذلك تنشد ابياتا تفتت القلوب :

غدا عند كر الفجر تصبح نائيا * فتترك ها بيننا وحدادا

اذا بزعت شمس ولست بجانبي * ارى الصبح ليلا والبياض سوادا

وان اضرم التفكير بعدك ناره * تضاءل جسمي واستحال رمادا

فسر ان هم البين عندي امانة * وقلبي له راع يصون ودادا

وداعا وداعا يا بني الى اللقا * ساجعل غم الصبر بعدك زادا

بكيت فغار الدمع قبل تجلدي * فيا رب ان الدمع عاد جمادا

فما طلع فجر ذلك اليوم حتى اصبح محمد وابوه في سيارة تذهب بهم الارض ذهبا قاصدين مدينة من مدن التل الجزائري حيث محل تجارتهم ومنبع ثروتهم التي منها يعيش ذلك الوطن القاحل من كل شيء الا من الدين الحنيف (رغم ما يجلبه اليه بعض ابنائه الخائنين من مفاسد المدنية ومضارها التي انهكت قوى الاسلام في انحاء المعمور وتركته لقمة سائغة للقوي الغشوم انا لله وانا اليه راجعون ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم)

مضت الايام تلو الاخرى وذكرى محمد لم يزل متمكنا في قلب امه وكانت لا يهدأ لها بال ولا يطيب لها مضجع . فتارة تروح على نفسها بالدموع الغزار وطورا بقذف ابيات من صدرها المتأجج حتى يكاد يلتهب ما حوله ومما يروى عنها هاته التفة

سئمت حياتي بعد فقد محمد * فيا ليتني من بعده حجر صلد

فان بيننا فلذة من قلوبنا * اذا ما شكى بعض تداعى له الند

فيا رب كيف العيش والقلب غائب * ويارب كيف الصبر اذ خطب الوجد

فيا حر قلبي انني اليوم ثاكل * وان كان حيا من له الحب والود

ابيت على جمر وفي النفس لوعة * ويشهد سقمي والتدلله والسهد

فيا ما امر العيش بعد فراقه * كان نجوم السعد بعده لا تبدو

اعلل نفسي بالمنى وانيرها * بنور رجاء عل يجمعنا العقد

الا ان يوم الضعن سم وحنظل * ويوم التلاقي من حلاوته شهد

فصبرا جميلا ايتها الامهات البائسات اللواتي تخطف اولادهن من بين ايديهن كما تخطف زغب الحواصل من عشها او كما ينتزع الكاس البارد من يد الضمآن . ان الرجال لا يقصدون بذلك تنغيص عيشكن وتكدير صفوكن كلا ولكن الضرورة احوجتهم الى ذلك ودفعتهم الى ارتكاب ما يكرهون . نعم ان اولاد غيركن يعيشون مع امهاتهم جنبا لجنب ولكن ما الحيلة والله اراد ذلك ولا مرد لقضائه يحق لكن ان تبكين وتنتحبن على افلاذ اكبادكن ولكن لا الى درجة ان تسخطن على القدر والدين راس ما لكن وحافظ مركزكن في العالم كله ولا فخر فانتن العفيفات الطاهرات القانتات فكن الصابرات الراجعات الى الله في امر اولادكن فغيركن يتمتع بماء الحياة وحده فلا يغرركن ذلك وانتن السابحات في لجة الفضيلة والدين . فما في هاته الدنيا يفنى ويضمحل وما عند الله في الآخرة باق لا يزول

(دخوله المدرسة)

في هاته العقدة من حياة محمد انتقل من دور الى دور اما الاول فكانت ترعاه وتعهده الام وان شاركها الجد والجدة كما اسلفنا ولكن القسط الاكبر راجع اليها وحدها دون سواها

اما الثاني فسينيط بعهدة الاب والمدرسة وهذا الدور من اهم ادوار الحياة واوقع في عقليه الانسان لان ذهن الصغير الى ذلك الوقت خال من كل شائبة لم يفسده شيء بعد فهو كالمرآة الصافية يطبع عليها كل ما يمر امامها (والفضل راجع للام اذ صقلته وصيرته ارضا صالحة للنبات) .

وفي هذا الدور ايضا يظهر استعداده الفطري وقوة ادراكه وفيه يؤسس مستقبله فاذا كانت التربية صحيحة مبنية على قواعدها المتينة وكان الاب مطلعا على نفسية ولده وعارفا بالصالح من الامور فالمستقبل زاهر . واذا عكست القضية فالويل كل الويل للاب والولد والوطن .

فلما وصلا الى تلك المدينة واستقر بهما المقام وكان ابوه لا يهمه الا الاعتناء بولده العزيز وتثقيفه على قدر الامكان لا يألو جهدا في تحسين حاله كلما وجد الى ذلك سبيلا

وكانت تلك البلدة التي تضمهم ككل بلدة جزائرية بالطبع لا يوجد فيها الا مدارس فرانسية فيها يتعلم لغة الحكومة المحتلة لا لسان الوطنيين الاصليين . على انها لم تكن تفتح في وجه الاهلي التعس مدرسة نظامية باتم معنى الكلمة كالتي يغشاها ابناء الاجانب فان التعليم في تلك البيوت عقيم لا ينبت شيئا واذا انبت فالشوك والحنظل من سوء الاخلاق والتذبذب وعقوق الوالدين والخروج عن الجادة ووو ....!!

دخل محمد مكرها بحكم الضرورة في لجاجها غاضا بصره عن امواجها (اذا الشحاذ يقبل بغير نقد ما تجود به عليه الايدي فنحن اليوم شحاذون اذلاء فلنقبل ما يعطى لنا بكل شكر حتى يقضي الله امرا كان مفعولا . اما اشتراط ما نحبه ونهواه فقد انقرض بانقراض دمشق وبغداد وقرطبة وتاهرت) .

على ان العلم مهما كانت رداءته وضآلته فالجهل اردأ واسوأ منه

مكث فيها مدة ليست بالطويلة كان في اثنائها مثالا للنشاط والاعتناء التام فقد ارتقى من الفصل الرابع الى الاول في مدة لم تتجاوز سنتين جاعلا في كل فصل نصف سنة وكل فصل كان منقسما الى رتبتين اولى وثانية .

باجتهاده وتوقد ذهنه احبه معلموه كثيرا فكانوا يوبخون اقرانه ممن نشأوا في تلك البلدة بقولهم : « انظروا الى هذا فانه انجب واحفظ لدروسه منكم وهو غريب عن اهله ووطنه وانتم المتمتعون بكل شيء »

ولكنه لم يتمم معلوماته ولم يسر الى النهاية في ذلك الطريق فقد قطعت عنه وهي اشهى ما تكون اليه لاسباب يعلمها الآباء والمربون في وطننا المسكين بامثالهم

هنا استوقف نظر الشعب لما يقترفه بعض ابنائه من اللعب بمستقبل افلاذ كبدهم . يرى الرجل من هؤلاء الضعفاء ان الناس قد اقبلوا على العلم وان سوقه نافذة فيدلي دلوه مع الجميع ويرسل سهمه الى الغرض المقصود ولكنه ويا للخجل لا يلبث ان يتقهقر من الميدان لاغراض تافهة كلها لا تكون حجة على فعلته الشنعاء

ليست الغاية من التعلم ان يكون الشاب يحفظ بعض كلمات لا يفقه معناها او يطالع سفرا ولا يفهم الا السطحيات منه او يحبر رسالة لابيه او امه يريهما فيه جهله واستعداده للعلم وقبوله .

من الذي الجاءكم الى خوض هذا البحر ايها الناس وانتم تعلمون انه خضم واسع الفجاج كثير الامواج . ولما قدر لكم ان تخوضوه فما بالكم لم تصلوا الى الشاطيء لتستريحوا من تلك الاهوال وتنجوا نفوسكم من شر الغرق انكم بهذا العمل المخالف لكل تشريع استلفتم انظار العقلاء وغيرهم اليكم فنظروكم بعين انتم تفهمون معناها رغم ما تظهرون من الطمانينة وبرودة الضمير .

ان اولادكم يا هؤلاء يكرهون عملكم ويتضورون من تهوركم وتقهقركم انهم في حال بؤس يرثى له وهم مع هذا والعلم ينير زوية من زوايا قلبهم لا يعصونكم ولا يخرجون من تحت ايديكم ولا يفهمون للعقوق معنى ولكن الكثير منهم يسألون الله ان يريحهم من عناء هاته الدنيا ويطلبون نعيم الاخرة .

اي حياة يرجونها مع علم ناقص فلو كانوا جهلاء لكانوا احسن حالا من اناس مذبذبين لا من هؤلاء ولا من هؤلاء .

يرون الجهال مجتمعين وهم في اسعد حال ظاهري فترفعهم همتهم عن مجاورة من

لا يجانسهم ولا يحفظ لهم الا ولا ذمة اذا اختاط الحابل بالنابل . ويرون العلماء في جانب آخر تحفهم العظمة والاعتبار فيكبو جوادكم دون الوصول الى غاية اولائك النجوم اللوامع فيمتليء قلبهم يأسا وقنوطا .

ايها الاباء ارحموا اولادكم فانهم من جنس البشر يحسون كما تحسون ويتألمون كما تتألمون . فان لم ترحموهم ارحموا وطنا تعيشون فوق ارضه وتحت سمائه وتاكلون خيراته . فانه لا يقوم ولا يرتقي الا بهم وهم رجال المستقبل ورافعوا دعائمه . فكيف يعلو وطن ابناؤه جهلاء ؟ انكم ان دمتم في سيرتكم هاته فستتركون بعدكم اناسا لا يرحمونكم ولا يشكرونكم على ما تركتم من مال ومتاع الحياة فحاسبوا انفسكم قبل ان تحاسبوا

* * *

ان ابا محمد لم يكن من ضعفاء العقول ولا ممن يتقهقرون امام النكبات والمصاعب بل كان يحب العلم من صميم فؤاده ويجل اصحابه ويسعى الى ان يبلغ ابنه اقصى درجة ممكنة فيه ولكن الظروف (ولها الحكم في كثير من الاحوال) لم تساعده دائما .

ولم يكن محمد مقتصرا على الفرانسية فقط بل كان يحفظ قسما من القرءان الشريف في اثناء تعلمه الفرانسية . تلقاه - اي القرءان - عن « مؤدب » على الطريقة القديمة المعروفة في جميع اقطار المسلمين تلك الطريقة الواهية التي تركت جلنا - ويا للاسف - كالبيغاء يقرأ آياته البينات ولا يفهم مما يقول شيئا فكانه وهو المحمدي الصميم يتلو كتابا غريبا انزل على نوح عليه السلام

ان القرءان انزل لان يفهم ويعمل بمقتضاه ابتغاء مرضاة الله لا لمجرد التبرك والتلاوة والاستظهار

ان المسلمين ضلوا عن الحق لما عميت عيونهم عن اتباع ما جاء به القرءان وسنة المصطفى صلى الله عليه وسلم

فان ارادوا شيئا من عزهم القديم رجعوا الى تفهم القرءان الكريم وتدبر معانيه والعمل به . وذلك لا يكون الا باشتراطهم فيمن يدرسه ان يكون متضلعا في العلوم العربية قبل كل شيء . مطلعا اطلاعا حقيقيا على اسرار الشريعة الاسلامية . عالما بطرق التدريس والتأديب . له مشاركة كافية في العلوم التي يحتاجها ابناء العصر الحاضر . ذا خلق عظيم . كي يتسنى له ان يغرس في دماغ التلميذ كلام الله العزيز ليهتدي به ويجعله حقا يفهم واجباته نحو ربه ونفسه والناس

اما رمي اطفالهم بين يدي معلمين (ان صحت هاته التسمية) لا يملكون من الفضائل والمعلومات ما يتسنى لهم ان يعيشوا بها كاناس مع ناس فضلا عن مربين لاناس فان هذا مما يجعل المسلم متاخرا عن غيره في ميدان المقارعة وهو يحمل بين جنبيه سر الحياة ونظام الكون واساس العمران

ولا يفهم القارىء من انتقادي هذا انني احرض المسلمين على عدم حفظ القرءان الكريم اذا لم توجد تلك الشروط المتقدمة فيمن يدرسه معاذ الله فهذا ما لا يدعو اليه مسلم حسن اسلامه واراد بملته خيرا اذ ان حملته في الصدور وتلاوته في المساجد ووجوده بين ظهرانينا خير من عدمه . فلا بد ان يلهمنا الله يوما الى استخراج دفائنه والتمعن في اسراره اذا نحن لم نتركه جانبا ولم ننبذه ظهريا .

ولكنني اذهب الى ان الاصلاح في طرق تدريسه بات محتما ان اردنا ان نجتني الثمرة التي نسعد بها في الدنيا والاخرة

(عودته الى وطنه)

عاد محمد الى مسقط راسه يصحبه ابوه وليس له هم لطول عهده في الغربة الا ان

يرى امه الشفوقة التي طالما سهرت عليه الليالي الطوال واستسهلت في سبيل سعادته كل صعب . ثم ارضه التي تربى فيها وتنعم بخيراتها حتى اشتد ساعده م

وصل الى تلك الربوع الجميلة التي يحن اليها من زمن بعيد ويفتتن بحبها وهو في المهد صبيا فوجد كل شيء في مكانه لم يتغير فكانه لم يفارقها يوما ولم يتغرب عنها زمنا .

واما امه فلما سمعت بخبر قدومه طار لبها فرحا وانجالت عنها سحب همومها واحزانها وألان لها الدهر جانبه وابتسمت لها الايام بعد العبوسة وحمدت الله على ذلك .

ترقبت وصوله بفراغ صبر فما هي الا عشية او ضحاها حتى كان بين يديها فظنت انها في حلم لذيذ سوف يكذبه الواقع لفرط شوقها اليه وحبها له فلما هدأ اضطرابها وسكن قلبها وعلمت ان ولدها العزيز حقيقة بين ايديها وان حلمها صادق غير كاذب انشدت ابياتا قذفها الترحيب بالمحبوب والشكوى من هم الماضي والآمه قالت :

عاد الحبيب وثغر الدهر مبتسم * وبات بحر الهوى بالحب يلتطم
يا حسنها ساعة قالوا الخليل اتى * من فضلها سحب الاكدار تنعدم
يا قرة العين يا نور الفؤاد ويا * من حبه وهواه . فتنة . السم
قاسيت بعدك ها لا تطاوقه * شم الجبال وتكبو دونه الهمم
ولو جعلت جيوشا منه غازية * لدكت الارض والايام تنهزم
كم ليلة بت والاحزان تغمرني * من كل ناحية والقلب يضطرم
اذا ذكرتك سال الدمع منهمرا * لا سامح الله ان البين مجترم
اليوم عدت فلا باس ولا حزن * فليرجع البشر والافراح والنعم
فقد مضى ما مضى سر الحياة غد * والهم بعد رجوع الخل ينصرم

نعم مضى كل حزن وانصرم كل هم ورجعت المياه الى مجاريها واصبحت سعيدة بجانب ولدها الذي طالما ناحت عليه وهامت في كل واد من اجله وهو غائب (وهكذا حوادث الدنيا كلها حلم يعقبه يقظة ويقظه يعقبها حلم . وهمومها وافراحها كسحابة صيف عن قريب تقشع) .

سأل محمد عن جده المحبوب وما باله لم يحضر مع الاقارب فقيل له انه التحق برحمة ربه منذ اربعة اشهر فحزن كثيرا لهذا النبأ العظيم وبكى ما شاء الله على ذلك الرجل الرحيم الذي قوم غصن صباه وسقاه بماء الحنان والحب . ثم تلا ما تيسر من القرآن الحكيم واهداه الى روحه الطاهر اعترافا بالجميل وقياما ببعض ما اسدى اليه من تربية صالحة فيما مضى من الزمن .

كان جده يقول لاولاده واحفاده اني لا ارجو منكم بعد موتي الا قراءة سورة قرآنية من وقت لآخر تهدونها الي وانا بين يدي ربي او قصعة من ثريد تتصدقون بها على الفقراء والمساكين فينير اجرها ظلمات قبري . ـ فانه كان رحمه الله في حياته يحب الثريد اكثر من كل طعام فاحب ان تطعم الناس ما يشتهيه ـ

قضى ذلك اليوم مع امه في داره وفي الغد رد الزيارة الى اقاربه جميعا فتهللوا كلهم وحمدوا الله على سلامته ورؤيتهم له وكانوا يحبونه لانه كان يحبهم ولانهم لم يروا منه يوما بادرة قطع رحم او عقوق الوالدين .

وبعد ان زال عنه تعب السفر واستقر امره ادخله ابوه مكتبا ليتمم فيه حفظ القرآن وكان قد مل ـ اي محمد ـ تلك الطريقة السابقة الذكر بعد ما رأى نظام المدارس الحديثة ـ لا في حسن التعليم ـ ولكن في النظافة وسعة المكان وصفاء الهواء وبشاشه المعلمين وعذوبة اخلاقهم ونشاطهم في تادية واجبهم والراحة بين الدروس وعدم الضرب وحشية لا تسمح بها قوانين المدرسة الى غير ذلك مما يميل اليه الكبير فضلا عن الصغير

فكان كثيرا ما يترك المكتب ـ والمؤدب والحصير والعصا بجانب ويولي وجهه شطر حدائق ابيه وجناته لينشرح خاطره وينير فكره ويروض جسمه عوض ان يسجن نفسه في قفص الموت وهيكل العذاب .

مكث في بلاده سنة كاملة على هذا المنوال . نبوغ كامن لم توجد الايدي الماهرة لاستخراجه وحياة فتية لم تكن البئة صالحة لنموها وتوسيع دائرتها

(سفره الثاني)

عاد الى دار غربته فجرى لامه ما جرى لها في المرة الاولى الا انها تعودت الالم فلم يعد يؤثر فيها كثيرا فتدرعت بالصبر والرجوع الى الله في امر ولدها (اذ ادركت ان للحياة احكاما قاسية فلابد للخضوع لها طوعا او كرها . فمن اراد ان يصادمها بقوته صادمته وافقدته لذة العيش حتى يرجع ويستسلم وهو صاغر ذليل)

هنا تختصر حياة محمد اختصارا ويخرج جزء منها لا يستهان به من بين يديه في غير رقي ولا زيادة . واذا تذكر تلك الفترة التي سالت في محيط لا شيء تألم كثيرا لانه في ذلك الحين لم يزل يقطع القسم الذهبي من حياته الذي يجب ان يكون مملوء بالاعمال الجليلة التي يعود نفعها عليه فيما بعد حينما يصل الى القسم الفضي ثم الرصاصي من عمره

اربعة اعوام كاملة قضاها في حفظ القرآن فلم ينل في النهاية الا سورا مرسومة في دماغه لا يفقه منها شيئا على انه لم يكن يحفظها كلها لما تقدم من اضطهاد المعلمين لتلاميذهم عند تلقين كلام الله لهم . فكان يحضر بجسمه ولكن قلبه غائب لانه لا يحب ان يسيطر عليه احد الا الله لما جبل عليه من حرية وعظمة نفس فلما اجبر وغلب على امره كانت النتيجة غير حسنة . لان القوة مهما كانت لا تجلب اليها القلوب الكبيرة

ولا تكسر حدتها بل ما تزيدها الامضاء على التمرد والعصيان وان كانت تستولى على الجسم الفاني في بعض الاحيان .

ان محمدا كان يدرك فائدة القرآن ولزومه للمسلم ان اراد ان يكون مسلما حقا حاملا لدستور دينه بين جنبيه . ولكن كره طريقة تدريسه كما يكره المرض والهوان . يدخل الصباح حجرة ضيقة مع نحو اربعين تلميذا بينما هي لا تسع اكثر من خمسة عشر تلميذا في المدارس النظامية . يظل مسجونا فيها امام مؤدبه من الساعة السابعة الى الزوال لا يخرج منها البتة الا لضرورة وربما في بعض الاحيان عدت الضرورة اكذوبة يريد ان يروح بها عن نفسه فيحرم من الخروج وهو في منتهى « الحصار » .

ثم يرجع في الساعة الثانية بعد الزوال فيظل هنالك جامدا على الحصير الى الساعة السادسة مساء وفي الليل قبل نومه يامره ابوه ان يقرأ ـ بصوت مرتفع ـ اربعة او خمسة احزاب ثم يضع عليه رقباء كالزبانية يتتبعون مواقع اقدامه خوف ان يترك في زاوية الاهمال سورة من السور لما يبدو على وجهه من كره ما يفعل .

ولم يدخله ابوه المدارس الفرنسية ليتمم معلوماته الاولى الا ابتعادا من التذبذب والخذلان الذي استولى على بعض الشبان من المسلمين حتى صاروا اعداء دينهم وملتهم ووطنهم حينما خاضوا ذلك العباب وهم فارغي الوطاب من الثقافة الاسلامية والاخلاق المحمدية ـ على منبعها افضل الصلاة وازكى التحيات ـ .

فقد اصاب فيما رأى وله الف حق فيما استنتج لانه مسلم صميم من الطراز العالي اراد ان يشب ابنه وارث اسمه مثله لا يتزحزح قيد انملة عن الصراط المستقيم صراط الاسلام .

ان ابا محمد لا يكره العلم مهما كانت صبغته يحب الرقي يحب الاخذ باسباب الحياة ليس بجامد ولا بمتعصب ولكنه يبغض العلم الذي يكون سببا في سلب الايمان

من القلب فيترك صاحبه خرقه بالية وريشة في مهب الرياح تقذفها حيث شاءت .

المرء يعيش بايمانه واعتقاده فاذا فارقهما ضل واضل فليتق الله اولئك الملاحدة الذين يسعون في الارض فسادا ويخربون بيوتهم بايديهم وهم يعلمون انهم يسيئون صنعا قاتلهم الله انى يوفكون

ايها المسلمون علموا اولادكم كل لغة زودوهم من كل علم لا تكرهوا الحياة المادية ولا الثقافة الاجنبية اتركوهم يجتنون كل ما لذ وطاب لهم فان الجهل قد اضربنا وصيرنا الى ما نحن فيه نعم الجهل ام كل مصيبة . ولكن انصح لكم وقلبي مملوء شفقة عليكم : ان اغرسوا فيهم الاسلام قبل كل شيء وحببوا اليهم ابطاله ولقنوا لهم تعاليمه السامية فبذاك تكونون شبيبة تعرف الغث من السمين وتصلح هاته الامة المنكوبة . اما بغير ما اشرت فالخطب جلل والعاقبة وخيمة - لا قدر الله -

ومهما يكن من الامر فان محمدا في هاته المدة الطويلة قد تعلم شيئا هو راس ماله وعماد دينه والناهي عن الفحشاء والمنكر وركن من اركان الاسلام العظمى .. تعلم الصلاة التي هي الصلة المتينة بين العبد وربه والشافعة فيه يوم لا ينفع مال ولا بنون . تعلمها وقام بها احسن قيام مع كل ما يتعلق بها من اوامر ونواهي كالصوم وغيره وهو مغتبط بهذا الواجب الجديد الذي ادخله في زمرة المحمديين العاملين باوامر دينهم الحنيف . لا اولئك الذين يدعون انهم مسلمون وليس لهم نصيب في الاسلام الا قولهم « اشهد ان لا اله الا الله واشهد ان محمدا رسول الله »

ان الاسلام ايها الناس ليس باللسان ولكنه بالقلب والجوارح الاسلام دين قول وعمل لا دين تمشدق وثرثرة . فمن وجد في نفسه بعدا عن العمل باوامر الدين والاكتفاء بالاقوال فليعلم ان الدين بريء منه وانه بعيد عنه بعد الكفر عن الايمان . وما اهلكنا الله وضيع ملكنا وساط علينا من لا يرحمنا الا بالتهاون والتضييع .

ومما هالني كثيرا ما قرأته اخيرا في بعض الاسفار الجديدة ان فلانا - من عظماء الشرق « كان رحمه الله يقوم بفريضة الصلاة ولا يؤخرها عن اوقاتها » فما كدت اتمم هاته الجملة حتى شعرت باليأس يدب في قلبي دبيب الموت في الحياة . وقلت يا للعجب من قوم مسلمين يصل بهم الحال الى ان يصير المصلى فيهم اعجوبة يجب ان يذكر عمله هذا على صفحات الكتب ليراه ويعلمه الناس . ابلغ بالمسلمين الزيغ الى درجة الافتخار بالقيام بالواجب المفروض . اللهم ان هذا لخطب عظيم . اللهم انك لعادل في كسر شوكتنا اللهم لا ترفع عنا نير الاستعمار حتى نرجع الى دين اجدادنا الفاتحين ونعمل به لوجهك لا غير .

(العودة الثانية الى وطنه)

فلما سمع ابوه ان مدرسة قد انشئت في مسقط راسه - وهي الاولى والاخيرة الى اليوم في تلك البلدة - طار اليها على جناح السرعة مع ابنه فادخله فيها . وكان - ابو محمد - من السابقين الاولين في تنشيطها ماديا وادبيا لانه يراها حياة البلاد ومنبعها الفياض

والمدرسة بسيطة جدا فيها يتعلم القرآن الكريم ومباديء الفقه والتربية والادب وكان يديرها استاذ فاضل ذو خلق طيبة يغلب عليه حسن الظن وصفاء الضمير حتى ليخيل للناظر اليه او الجالس معه انه يحدث ملكا كريما طاهرا لا يعرف غشا ولا رياء ولا غدرا ولا نفاقا . ومحمد لم يزل ولن يزال يذكر اياديه البيضاء في تثقيف اخلاقه وغرس روح الاسلام في قلبه .

كان محمد مثالا للاستقامة الخلقية فاحبه استاذه . ومثالا للذكاء والاعتناء فحسده اقرانه ولكن بنشاطه وجده ظهر عليهم وبزهم وهم متأخرون .

فلما رأى منه ابوه استعدادا يخوله الرقي المستمر مع ما اشار عليه بعض من يرجون للبلاد خيرا ويصلحون في الارض انه لابد من ارساله الى تونس للاغتراف من

مناهلها العذبة ومواردها الطيبة عزم على تنفيذ ما رأى فتوكل وسار.

سفره الثالث

سافر محمد للمرة الثالثة يصحبه ابوه وترك لامه وذويه الحسرة والثكل لاكاول وثاني مرة حيث كان طفلا صغيرا كالوردة الزاهية تشم ولا تحك ولكن كولد بار ظهرت منه منافع وعلامات جلية تبشر بتألق مستقبله فكانت تصبر قلبها وتسلي نفسها بعظم المطلب وعلو الغاية وشرف المقصد

وصل تونس مهد العلم ومعمل الافكار فتركه ابوه (وهو لا يرجو من خاتمة جهوده وتضحياته الا نفع بلاده ودينه) تحت مراقبة اساتذة كانوا يرأسون تلك البعثة المباركة التي تقيم في تلك البلاد والتي ستكون كنواة لحياة بلاد الجزائر العزيزة ومجدها المفقود بحول الله وقوته.

ادخل مدرسة حرة والنظام فيها لم يبلغ درجة عالية ان لم اقل متوسطة لان مديرها كان صحفيا اكثر منه رقيب مدرسة وكثيرا ما كانت التلاميذ تغوص في بحر السياسة الهائج على مرأى ومسمع منه وهو راض بل ربما شاركهم في حديثهم المتشعب وانار لهم السبل والسياسة كما تعلمون ما دخلت في امر الا وافسدته

على انها - اي المدرسة - لا يغمط حقها من الوجهة الوطنية والدينية فانها كانت مهدها ولها الفضل في تكوين عقلية محمد التي سيفور بها فيما بعد لخدمة امته المنكوبة.

انها شبيهة بناد ادبي فيه تتربى ملكة التفكير وفيه تغرس الاخلاق الفاضلة في القلوب ولكنه عن القواعد العلمية الصحيحة خال ومن توسيع نطاق المدارك صفر.

على ان اساتذته المرشدين الخارجين عن المدرسة لم يزالوا يسهرون على مصالح البعثة (ان محمدا لا يقدر ان يجازيهم على تلك الايام الجميلة التي غمروه بها ولكن الله سيجازيهم على قدر مجهوداتهم وتضحياتهم احسن الجزاء والله لا يضيع اجر من احسن عملا)

خافوا من هذا التدهور الذي اصيبت به تلك المدرسة التي كانوا يحسبون انها معمل قادر على تخريج الاكفاء ليصادموا الجهل ويحيوا مجد الاباء. فلما خيبت آمالهم اخرجوا منها كل من كان تحت رعايتهم - ولم تعمر تلك المدرسة بعدهم طويلا - فادخلوهم في مدرسة اخرى احكم نظاما واوفر اعتناء بالتربية العلمية الصحيحة.

قضى محمد فيها نحو عامين كاملين يزاول من العربية والفرنسية ما راق وطاب بجد واجتهاد جاعلا نصب عينيه رفع مستواه العلمي لترتفع بذلك امته وتفوز.

ولم يقتصر في تلك المدة بالدراسة فقط بل كان يعمر اوقات فراغه - وهي قليلة وقصيرة جدا - بالتمرين على الكتابة والخطابة والشعر ويكثر من المطالعة في شتى الكتب من شتى الفنون. يرى انه لابد من تطبيق ما يقرأ من القواعد العامة على ما يجود به فكره ويقذفه ضميره.

ان القواعد المجردة ثقيلة على النفس وغير منتجة اذا لم يصحبها ما يلطف صعوبتها ويكسر حدتها ويسيرها نحو غايتها التي جعلت وسيلة للوصول اليها. وكثير من الناس يظنون ان اي خروج عن حدود الدراسة مضر بالتلميذ ومفسد لعقله ويعدون الكتابة والمطالعة من النوع الخارج عنها والذي يجب ان يجتنب وهذا الاعتقاد فاسد من اصله لان الكتابة والمطالعة يزيدان في الفكر حدة وجرأة على قبول ما يتلقاه من القواعد والدروس العلمية في اوانها. نعم لا يجب ان يميل اليهما كل الميل ولا ان يهجرها بالمرة لان الافراط والتفريط في كل شيء مضر والاعتدال محمود ومفيد.

اما قراءة السياسة ومطالعة الروايات الغرامية فشر وفساد للتلميذ لان الاولى تخرب العقل وتقطعه قبل نضوجه والثانية تهلك الدين وتحطم الاخلاق فالتنفير منها وقت الدراسة من الواجب على الاباء والمربين ان راموا لاولادهم خيرا وصلاحا.

اما التلميذ الذي لا يطالع ولا يفكر متكلا على قواعده الصرفة لا ينجح في ميادين

العمل عند دخوله معمعة الحياة . كما ان الخالي من القواعد المفروضة اللازمة لا يغوص في جلائل الاعمال ولا ينظر الا الى السطحيات من الامور

* * *

لم يكن محمد متنطعا في افكاره ولا معجبا بارائه ولا شاذا في اخلاقه ولا حسودا لاخوانه ولهذا تعددت اصدقاؤه وكثرت احباؤه . ولكنه في بعض الاحيان يغلي مرجله فيغضب ثم لا يلبث ان يثوب اليه رشده فيرجع ويخفض جناحه لان قلبه خال من داء الحقد والبغض .

وكان يرى ان المشاريع لا تقام الا بسعي الجماعات واما الافراد فمجهوداتهم محدودة لا تثمر في الغالب الا بعد العناء الشديد والزمن الطويل . هنا فكر هو واصدقاؤه في تاسيس جمعية ادبية وطنية تعمل لسعادة امتهم فكان الوفاق رائدهم فاتكلوا على الله ونظموها على طريقة الجمعيات الحديثة وكانوا يلقون فيها خطبا ومحاضرات كلها تحوم حول الوطنية والدين ويتحاورون مشافهة في مسائل تهم شعبهم المنكوب فصارت جلساتهم دماغ الامة المفكر وقلبها النابض . ولم يقتنعوا بما ذكر فاسسوا مكتبة للمطالعة العامة ثم جريدة تكتب باليد يحررها اعضاء الجمعية العاملين ويقدمونها لاخوانهم افراد البعثة العلمية في تلك الديار لتنير لهم السبيل وتصلح حالهم وترشدهم الى واجباتهم الوطنية ولم تلبث ان ارتقت فانقلبت مجله نصف شهرية مملوءة بالفوائد والنفائس . اما الجمعية فقد تقدمت في شهور قلائل تقدما شاسعا يعد غريبا بالنسبة لسير الجمعيات . وكان محمد يلعب دورا خطيراً في رقيها والسير بها في طريق الكمال الممكن حتى نعق غراب البين بينه وبين اصدقائه الذين يهتدي بهم في الليالي القاتمة ويرجع اليهم في المدلهمات قفل راجعا الى وطنه العزيز وهو يفور احساسا وشعورا .

العودة الثالثة الى وطنه

وصل ميزاب فاستقبل بكل حفاوة واكرام من جميع الطبقات التي تتمنى ان يبعث الله فيهم من يفتح في وجههم باب الحياة والسعادة . فكان كلما نزل بين ظهرانيهم من ينتمي الى العلم ظنوه هو المنقذ لهم - بارادة الله - من شر ما هم عليه من الجهل الاسود والتفرق المبيد . صفة جميلة اتصف بها اهل ذلك الوطن الشهيد وهي الشعور بحرج الموقف والسعي في الخروج منه . ولكنهم في كثير من الاحيان لا يدومون على خطتهم فيملون ويتقهقرون قبل الوصول الى غايتهم فيذرون بذلك الياس والقنوط في قلب من يسير بهم فتموت المشاريع في مهدها وهم المسببون . وفي بعض الاحيان يتبعون بعض الدجاجلة المفسدين لغفلتهم وبلههم فيسوقونهم الى ما لا تحمد عقباه فيضيع اعمارهم ويفسد اعمالهم وهم مع ذلك لا يعذرون وامام الله يحاسبون

لم ينظر محمد هاته المرة الى جمال بلاده وصفاء هوائها وعذوبة مائها ولا الى اجسام اهلها وتغيير بنيانها بل نظر الى عوائد واخلاق قومه فتغيرت امامه الاحوال وشعر بالوحشة تتسرب الى قلبه من طريق النفوس المجاورة له .

الزواج

مضت عليه مدة ليست بالطويلة وهو لا يعنيه امر احد ولا يدخل مدخلا عموميا ما . وفي اثناء تلك الفترة زفت اليه شريكة حياته وانيسة خلواته فكانت - بعد ابيه وامه - النجمة المتلالاة في افقه الذي راى فيه سحابة سوداء تتقدم اليه شيئا فشيئاً تريد ان تكفره حتى لا يشعر بسعادة الوجود وهناء العيش

ان قلبه لم يعد يخفق وحده بل بات بجانبه قلبا آخر يقسم معه افراح الحياة واتراحها فاحبه حبا صادقا ولكن لم ينسه ذلك الحب غايته المقدسة التي سعى اليها الا وهي طلب المجد والسعادة لوطنه الشهيد

ان محمدا لم يبلغ بعد ثماني عشرة سنة من عمره والعادة في ذلك الوطن ان الجل من ابنائه يقترنون قبل سن العشرين . وفي هاته العادة منفعة ومضرة اما الاولى فان الزواج يحفظ الشاب من التهتك والانقياد للنفس الامارة بالسوء والترامي في حضن العهر والفساد . ثم هو يتعلم الاتكال على النفس منذ الحداثه لان والديه بعد ما يرمونه في ذلك البحر الزاخر لا ينظرون اليه بالعين التي كانوا ينظرون بها اليه من قبل بل يتركونه وشأنه - الا القليل منهم - يسبح ويغوص اما ان يحرز على الدرر والجواهر او يمسي لقمة في بطون الحيتان . والبيئة ومناخ الاقليم ايضا حكم قاهر لا يغلب اذ ليس البلاد الحارة في تاثيرها على المزاج البشري كالمعتدلة او الباردة والفرق واضح لا يحتاج الى دليل

اما المضرة فلان الشاب قبل العشرين مهما كان حاله لم يقرر مصيره بعد ولم يتجه الى ناحية من الحياة ثابتة لا تزحزح يقضي فيها ايامه الآتية فهو لم يزل كالريشة الطائرة في مهب الرياح لا تستقر على حال فمن الحكمة الا توضع في عنقه تلك السلسلة المحكمة الثقيلة وهو لا يشعر باستقرار وجوده وغاية مصيره . وعلى كل حال فلا لوم اذ كل شيء قد سار في طريقه السوي فان اولئك القوم لا يهمهم الا امر دينهم فهم يضحون كل شيء في سبيله فلا يمحصون ولا يقابلون ولا يقارنون الا بمكرسكوب الدين فالدين له الدرجة الاولى في تسيير سفينة حياتهم الادبية والمادية وما ضل من جعل الدين دليله .

ان الزواج في ذاته امر ضروري للبشر كالماء والهواء والنور وبه تتكون الجماعات والامم ويزدهر العمران فلا غنى لامة عنه ما دامت تريد ان تحيي عزيزة الجانب قوية السلطان يرهب سطوتها القريب والبعيد

ان الشرائع السماويه والقوانين الوضعية كلها متفقة على وجوب الزواج وتحريم الزناء ومن المعلوم ان الانسان لا يتكون الا من الانسان اذاً فلا وجود ولا عمران

الا بالاقتران الشرعي . اما قرن العشرين قرن المصائب على الانسانية قرن التوحش والفساد فقد انكرهاته الحقيقة وتعامى عن هذا السبيل ولكن ما كل نكران يفيد ويجدي فسوف ياتي الله بامر من عنده فتنقلب القضايا المعوجة ويسير كل شيء في صراطه المستقيم

اما انتم ايها المتبجحون بعدم ضرورية الزواج للبشر وتحبيذكم الزناء فقد فهمنا نواياكم الخبيثة نحو الانسانية المعذبة وفهمنا كل ما يدور ويختلج في صدوركم من شهوات واغراض كفوا فقد اطلعنا على امركم فلم يبق لنا الا ان نقول لكم كونوا قردة وخنازير كونوا كلابا عاوية والتقطوا فرائسكم النجسة من بين مزابل المواخير واسلكوا طريقا معوجا حتى يهلككم الله . فانكم لا تستحقون غير لعنة الله والملائكة والناس اجمعين . اما نحن انصار الزواج والفضيلة فقد راينا فيما فعلنا سعادة وهناء لا نجدها ابدا في غير مسلكنا الشريف والحمد لله والشكر لله .

الى العمل ! الى الاصلاح

نظر محمد الى المجتمع بعد تلك الفترة - العسلية !! - وسبر حركاته وسكناته من نافذة البحث والتنقيب فوجد حاله سيئا جدا ومنذرا بالخطر وسائرا في طريق غير مشروع فهاله الامر وعلم ان البلاد جادة الى الفناء والزوال وان لا مناص من الوقوع فيما يكرهه ويخشاه

علم كل ذلك وادركه بعين بصيرته فلم يعد يشك فيما راى واستنتج ولكن ما العمل ؟ ايتقدم الى اصلاح ذلك المجتمع الهائج وهو الضعيف في كل شيء الا قلبه ؟ ام يتأخر ويكتفي بالتأسف والبكاء وهو يرى ذلك نذالة وخيانة وسقوطا في النفس ؟ ما العمل ؟ اللهم هيء له من امره رشدا . في هاته النكتة الضيقة وهاته الزاوية الحادة تصادم الواجب والهوى فتشاجرا وتصارعا وكان صدره ميدانا لهما فنهكت قوته وسلبت راحته وانضب هناؤه فبات فريسة للاسقام وطعمة للالام . التفت يمينا

وشمالا فلم يجد عضدا ولا مساعدا لان الناس في نومهم الكهفي يغطون فامتلا قلبه غما وحزنا فذرفت عيناه عبرات حارة لا ضعفا في قلبه وسقوطا في ايمانه ولكن هو الواجب يخطب والنفس تأبى . نعم بكى ترويحا عن خاطره فلم يجد من يمسح دموعه او يعينه على امره فانشأ يقول :

لو كنت شخصا بليدا * اعمى البصيرة تائه
في الجهل اسعى واعدو * ورافلا في هوائه
له علي اياد * علي ثوب هنائه
لكنت اسعد حظا * من عالم بذكائه
اذا دعاني ضميري * نبذت صوت ندائه
او جاء عرضي ليقضي * قطعت حبل قضائه
لا اخدم الفكر الا * مقللا من بلائه
ولا اهز يراعا * لسفك طهر دمائه
ولا احبر قرطا * سا مفسدا لبهائه
ولا اطالع سفرا * مكدرا لصفائه
ارى بذا الكون سرا * يطوف حول فنائه
فيذهب الحزن عني * لانني من هبائه
اعيش فيه طليقا * بلا قيود ريائه
فذاك حظي من العيـ * ـش راضيا برخائه

* * *

فها «علمت» فانني * مستعبد في بنائه
ولو كرهت فانني * اسير تحت لوائه

ان شاء عشت ذليلا * او شاء فوق سمائه
فذو المعارف يشقى * والبؤس طيء ردائه
ان التعاسة سم * ممزوجة بدمائه
الا لحى الله علما * يضرني بدوائه
لا سامح الله اني * بالعلم رهن شقائه
لا سامح الله اني * معذب بلقائه
فلو هجرته حينا * نجوت من برحائه
والعقل يقتل هما * من يهتدي بضيائه
كم عالم مات غما * بصبره ووفائه
او عاش وهو كئيب * وفاقد لرجائه
وجاهل في نعيم * يجول في غلوائه
وهكذا سنة اللـ * ـه تقتضي في ثرائه

بكى وندب حظه التعس ولكن هو حب الواجب متغلغل في صدره فما لبث ان قذفه الى ميدان الصراع وهو يقول : « اعمل واخطىء خير من اجهد واصيب!! » و « مهما يلحقني من الضرر الشخصي في سبيل بلادي فاني اراه ضئيلا بجانب المصلحة العامة!! »

خاض ذلك العباب والجو اقتم من كل جانب فبدأ ينشر افكاره في المجتمعات الخاصة كلما سنحت له فرصة وراى المقام صالحا للقول . ثم صار يتدرج الى ان ولج العامة منها فثبت زمنا يكافح مكافحة الابطال في سبيل اماني بلاده في كل مكان فكان من نتيجة امره ما كان

دعى قومه الى الاصلاح العام في جميع فروع الحياة . واراد ادخال اشياء لازمة وتغيير اشياء ضارة قد اكل عليها الدهر وشرب فنادى متكلا على الله:

اصلاح التعليم الديني

الدين حياة المسلم وروحه ومن المستحيل ان يعيش بدونه فكلما حاول تغييره غير الله ما به وخذله حتى يرجع ويتوب

نظر محمد الى التعليم الديني فوجده عقيما لا ينتج ووجد اهله متمسكين بالقشور دون اللباب فخاف ان يجر هذا الاهمال سقوط الدين وكلمة الله فرفع عقيرته بوجوب الاصلاح والتنظيم

يرى من الواجب ان تفتح مدارس نظامية مختصة لهذا الغرض تحت رعاية علماء الدين ونظرهم السامي . وهم يهتمون بها دون غيرهم ويعتنون بها حق العناية حتى يتخرج منها علماء اذكياء ومتشرعون فيوفقون بين الدين الحنيف والمدنية الصالحة العصرية ليصير المسلم سيد الناس كما كان ايام السلف الصالح

وراى ان الجمود والتنطع يقضيان على الدين ان دام العلماء متمسكين بهما فذمهما بكل ما لديه من بيان ونفر العلماء منهما ورفع الستار عما يجلبان من ضرر للامة وسعى في اقناع العلماء بضرورة الاصلاح والاسراع فيه . ومن جانب آخر حرض العامة على الوقوف باعتاب العلماء وطلب ذلك الاصلاح بكل الحاح ليزيدوا في الطنبور نغمة وفي الطلب قوة

المسجد

المسجد في البلد بمكان القلب في الجسد فاذا صلح صلح البلد كله واذا فسد فسد البلد كله . وله - كما هو معلوم - انظمة وقوانين واحباس الى غير ذلك مما يتكون به هيكل عمارته . وهاته القوانين - ككل تشريع انساني - ليست صالحة لكل زمان ومكان اذ لابد من تنقيحها او تبديلها بغيرها اذا اقتضى الحال

راى محمد فيما تقدم ما يحتاج الى الاصلاح والتنظيم ولم يعرج عليه لاسباب

قد يكون الخير فيها شرا . ولكنه من جانب آخر راى من اللازم الدعوة الى الاصلاح فيما هو باد للعيان ولا يمكن السكوت عليه بحال

ان ميزاب وطن اسلامي وعريق في اسلامه لا يهمه من شؤون الحياة الا الدين وما يتصرف منه ومن هنا كان لرؤساء الدين او « العزابة » السلطة على الشعب في تسيير اموره والاخذ بيده الى السعادتين . ولا ينازعهم في ذلك منازع داخلي او خارجي (وذلك بمقتضى معاهدة سنة ١٨٥٣ التي تجعل ميزاب تحت الحماية الفرنسية وتخوله استقلاله الداخلي المطلق) ولكن هؤلاء « العزابة » لم يقوموا بواجبهم المقدس الملقي على عاتقهم فقد فرطوا فيه واهملوه فضيعوا بذلك ثقة الامة وسطوة وحقا مشاعا كان يتمتع به ميزاب منذ القديم . وبات المسجد وهو قلب الامة ودماغها مسرحا واسع الاطراف للاغراض والشقاق والاهمال فتقدم اليه غير الاكفاء فكانوا ضربة قاضية على وحدة الامة وسمعتها الطيبة في الخارج

ان العامة وان كانت متصفة بالجهل فانها مع ذلك ميزان الشعب الذي لا يمكن ان يكذب ولا ان يخدع ابدا . فلما رأت - اي العامة - هذا التدهور وهذا الاختلال الذي الحق المسجد قالوا ان هذا لا يصدر الا من اناس لم يشموا للدين الصحيح ولا للعلم والاخلاق رائحة فنفروا منهم وتمردوا عليهم فعميت البلد وعم القحط الاكبر قحط النفوس لان منبعها الفياض قد انضب وغارت تحت الاغراض والاهواء

امام هاته النكبة قام محمد يدعو غير ما مرة الى الاصلاح وتدارك الخطب قبل استفحاله .

الوعظ والارشاد .

لم يصل الينا هذا الدين الحنيف الذي نستظل بظله اليوم والحمد لله الا من طريق الامر بالمعروف والنهي عن المنكر . وهذان جندان من جنود الله فمن نصرها

نصره الله ومن خذلهما خذله الله وهما لا يفوزان ولا ينتصران الا تحت لواء الوعظ والارشاد وبدونهما لا يتمكن الدين في قلوب الجماهير ولا يدوم في اوساطهم . ولهذا احب محمد ان تلقى دروس منتظمة في بيوت الله توافق حاجية الامة وتنير لها سبل الحياة المتشعبة وتحضها على التمسك بالدين القويم - الذي هو روح المسلم - والسير في مناهجه المستقيمة ويكون كل ذلك باسلوب حكيم يذكر الخاص ويرشد العام . واحب ان يقوم بهذا العبء مرشدون ماهرون قد درسوا نفسية الامة وخباياها ثم هم لا يتكلون في نصحهم ووعظهم على ما حوته الكتب فيسردون على العامة ابوابا وفصولا قد سمعوها مرات عديدة حتى لم تعد تؤثر فيهم بل يجب ان يخترعوا اسلوبا وعبارات ومعاني تلائم عصرهم وبيئتهم وقومهم لان الكتب التي في ايدينا اليوم - وان وجب ان نقتبس منها ما قاله السلف الصالح - قد وضعت لاناس قد اتى عليهم الدهر . ونحن الآن في عصر يخالف كل المخالفة ما سبقه . والسير مع الزمان عامل للفوز والنجاح

ويتحتم على هؤلاء المرشدين ان يقوموا الاخلاق قبل كل شيء ليتسنى لهم بذر ما شاءوا من الاصلاح في امد قصير وبغير كبير عناء . ولا ينسوا مع ذلك ان المرشد اذا لم يكن نظيف الذيل طاهر السريرة يقول ما يفعل ويفعل ما يقول لا يسمع كلامه ولا يعمل به ولو جاء ببيان قس واكثم وسحر هاروت وماروت لان العبرة بالقلب لا باللسان .

ويجب ان يجتنب ايضا في هذا السبيل النهي عن شيء لم يقترف او لم يكن له وجود في الاذهان والامر باشياء لا طاقة على الانسان القيام بها اذ لا يكلف الله نفسا الا وسعها فما بالك بتكليف العبد الضعيف

وليكن المرشد صبورا ثابت الايمان عاملا لله لا يتزعزع امام صدمات المبطلين .

العلوم الحديثة

راى من الواجب المفروض السير مع العصر جنبا لجنب في جميع الحالات والوجوه الصالحة خوف ان تتحطم امته الضعيفة تحت القوات التي يقذفها العالم الجديد في كل لحظة الى حيز الوجود .

اقترح على الامة ان تؤسس جمعية ذات فروع في الوطن وفي بلدان المهجر يكون غرضها الوحيد جمع المال لارسال بعثات علمية متشبعة بالدين القويم الى مختلف العواصم سواء كانت اوربية ام اسلامية لتتعلم كل ما يقال انه علم فمن طب وحقوق ومكانيك ورياضيات الى علم الاثار ولغات العالم وتربية الحيوانات لا يستثنى من ذلك الا علم الزندقة والتذبذب والالحاد .

واراد ان تجعل لهم دور تحت مرقابة اناس ذوي فضيلة يحفظون اخلاقهم ودينهم وعوائدهم حتى اذا رجعوا الى بلادهم ثقفوا اهلها ورفعوا مستواها بين الامم

الفلاحة

نظر الى الفلاح المسكين فوجده في احط الدرجات ماديا وادبيا لان مهنته سائرة على سنة قديمة لم يدخلها اي تحسين يذكر رغم تغيير الازمان وكر الدهور . راى ذلك السقوط الفاحش فاحب اصلاح حاله ليسعد الشعب بسعادته لان الفلاح خادم الامة وسيدها ولا حياة لقوم بدونه فهو العنصر الاول في تكوين الشخصيات المستقلة وما سعدت امة بشقاء فلاحها ابدا .

من هذا الذي شفق عليه ورثى لحاله واراد اصلاح امره ؟ هو ذلك الرجل التعس الذي يضل سنة كاملة يعمل في ارضه او جناته بكل قواه لا يعرف للراحة الحقيقية معنى ثم هو في آخر العام لا يجني من نتيجة عمله ما يسد ديونه المتراكمة في خلال السنة . وكل ما اقترضه لم يصرف منه الا القليل في ضروريات بيته بل

الجل افناه في احياء نخيله وتنمية بقوله . وهكذا طول حياته يعمل ويكد لغير فائدة تذكر واذا مات ترك ارملة مسكينة وصبية صغارا لا يملكون قطميرا فيكشر لهم الدهر على انيابه فيعيشون عيشة الفقراء المعوزين او يموتون موتة البؤساء المنكوبين

ان الفلاحة في ميزاب سيئة من جميع الوجوه واهمها استخراج الماء من الآبار التي قد يبلغ عمقها في بعض الاحيان وفي بعض الاماكن مائة ذراع فما فوق . وطريقة استخراجه محفوفة بالمتاعب التي لا يتحملها الا من رزق ارضا جرداء كميزاب لا يمكن العيش فيها الا بتلك المصاعب والمشاق . ولذلك هجر كثير من ابنائه الى ارض التل وتركوا ذلك الوطن يئن تحت اثقال جسيمة يدركها كل من نظر اليه بعين الشفقة والانصاف . وهاته الهجرة تتضاعف كل سنة ويزداد خرقها اتساعا كل يوم ومن ثم قلت اليد العاملة من ابناء البلاد الذين لهم عوائدهم واخلاقهم الخاصة فاحتل مكانهم جيش من العمال الذين يفسدون في الارض ولا يصلحون لما هم عليه من فساد الاخلاق والبعد عن التربية الدينية والجشع الزائد في النهب وتكدير الصفو العام

تألمت البلاد من فسادهم فلم ير الناس طريقا للتخلص من شرهم لاستفحال امرهم وانتشارهم في طول البلاد وعرضها

ان تلك البلاد حقيقة محتاجة الى اليد العاملة وانها في ازمة شديدة من تلك الوجهة . ولكن كل فرج يحل هاته المسالة الخطيرة ويكون السبب في فساد الاخلاق وتحطيم الدين وتكدير الامن فلا نراه فرجا وحلا بل سيرا نحو اضمحلال الشخصية وخراب البلاد

امام هذا الخطر الداهم دعى قومه الى اصلاح الفلاحة ترقيعا لخرق الفساد . فاقترح على الاغنياء ان يكونوا شريكة وطنية صرفة لا دخل للاجنبي فيها البتة تكون غايتها حفر الابار الارتوازية واحياء الارض الميتة من مياهها الغزيرة حتى

يرجع المهاجرون ويجدون ارضا صالحة للفلاحة وكنزا للثروة فبذلك تحفظ البلاد من كل فساد . اما بغير هذا فالويل كل الويل للمستقبل القريب .

التجارة

التجارة منبع الثروة في كل شعب ولا يمكن لامة ان تستقل بدون ترقية تجارتها الا ترى ان الحروب القائمة في الدنيا جلها واعظمها في سبيل حماية التجارة والتفوق فيها . وان الحرب الحقيقي لتكوين الشعوب الحرة هو حرب الاقتصاد التضروس

ان محمدا لم يدع الى قلب التجارة الحالية وتبديلها بغيرها كما هو الشان في الممالك الراقية بل دعى قومه الى التحسين فقط لان جلهم ان لم اقل كلهم لم يزالوا يجهلون فنون الاقتصاد واساليبه الواسعة . دعاهم الى انشاء الشريكات التعاونية وتاسيس الجمعيات لحماية مصالحهم وتحديد الاسعار رفقا بالضعيف ودفعا للمنافسة المضرة . واتباع القوانين المسطرة حتى لا ينشا اي اختلال . وانشاء جريدة عربية تتبع حركات الاقتصاد في العالم ليكون التاجر على بصيرة من امره عند هبوط وارتفاع الاسعار والاستفادة من سيرة الغير . وشراء البضائع من مصانعها بدون واسطة . الى غير ذلك من بسائط فن التجارة .

اما من جهة الاخلاق فلم ير في الجالية الآخذة بزمام التجارة في التل ما يسره فان الشبان منهم كاد يقضي عليهم زخرف المدنية وبهرجتها فقد ضيعوا كل خلق طيب وكل تقوى حملوها معهم من تربة اجدادهم فعوض ان يكونوا مرشدين ناهين عن المنكر آمرين بالمعروف ونواة اصلاح في تلك الاراضي الشاسعة كما يامرهم الاسلام والواجب كانوا ويا للاسف في كثير من الاماكن معونة للفاسد على فساده وجرثومة للتهتك المخرب .

فيا ايها الشبان ان كنتم تظنون ان المدنية فيما تقترفونه وان التدين همجية ورجوع الى القرون الوسطى كما يقولون فان ظنكم هذا تكذبه الادلة العقلية والنقليه ويؤيده الهوى والشيطان وان كان السيل العشريني قد طمى عليكم وانتم غافلون فانتبهوا ونجوا انفسكم قبل ان يقذفكم في بحر لا يعلم الله قعره فتندمون ندامة فرعون ولات حين مندم

ايها الشبان ان نصيحتي لكم خالصة وما اردت بها الا ترقيتكم والسير بكم في طريق الفلاح . اعلموا ان لكم اعمالا جساما وانكم مسؤولون عنها امام الله والعالم اذا اهملتموها . من منكم ينكر انه مسلم ؟ من منكم ينكر انه يحب بلاده ؟ من منكم ينكر ان له مجدا قديما ؟ من منكم ينكر ان حالتنا الراهنة في منتهى التعاسة والسقوط ؟ كل منكم يعترف ويقر بذلك فان لم يكن بلسانه فبجوارحه اذا فلماذا هذا الذهول وهذا التقاعس بل هاته الموت .

ايها الشبان ان طلب المجد والسيادة مخالف لما ارى ؟ فكونوا كما كانت اجدادكم والا رحمة الله عليكم .

بمثل هذا كان محمد يرشد قومه ويدعوهم الى الاصلاح بكل هدوء وسكينة وحكمة .

الصناعة

ان الصناعة التي هي ام التجارة وبنت الفلاحة ضئيلة جدا في ذلك الوطن القاحل ومما يذكر رغم قدم طريقته نسج الصوف الذي هو الصناعة الوحيدة التي يصح ان يقال انها منتشرة في البلاد يتعاطاها الرفيع والوضيع والفقير والغني

في كل دار من دور البلاد منسج عتيق تدبره المرأة وحدها لا دخل للرجل فيه ولكن مدخول هذا العمل ضعيف جدا وربحه ضئيل لا يساوي اتعابها رغم

الاتقان والاجادة . واهم ما يفتخر به هذا المنسج العتيق الزرابي الجميلة التي ذاعت شهرتها في العالم بفضل السياحين الذين يقدرون للصناعة والفنون الجميلة حقها .

احب محمد ان تنشط تلك الصناعة باقامة معرض عام في كل سنة فيه تعرض جميع انواع الانسجة الوطنية وينال الفائزون جوائز مختلفة تكون لهم عونا وتنشيطا على عملهم فبذلك يتقدم المتاخر ويزيد المتقدم اتقانا ثم اراد ان تشتغل اليد الفقيرة العاطلة بانشاء معمل واسع الاطراف للنسيج تعمل فيه النساء الفقيرات اللواتي فقدن كل مساعد وبتن عرضة للمصائب والاخطار

* * *

دعى الى كل اصلاح واحب كل خير ووقف في وجه الجمود كالصخرة العاتية وحرك الهمم الخاملة وجاهد في الله حق جهاده عامين كاملين . وفي الختام اجابه لسان حال الامة : « لسنا نفقه كثيرا مما تقول فاذهب انت واصلاحك الى امة غيرنا اما نحن ففي بحبوحة العيش لا نطلب منك الا الصمت وعدم تكدير راحتنا . اذ ما بال من سبقك لم يقل شيئا مما تقول ام انك وحدك شعرت وغيرك ميت الاحساس . اسكن ففي السكون راحة !!! » هكذا ختمت مجهوداته وهكذا يلاقي كل عظيم في بداية امره وهكذا يكون الصبر الجميل !!!

امام هاته الخيبة الكبرى بات محمد ينشد بكل كآبة والياس ملء جوانبه :

دعوت قومي الى الاصلاح فامتنعوا * وقد دروا انه حق فما خضعوا
لا ينصتون لقول جاء معتبرا * لانهم في مروج الكبر قد رتعوا
يبكون حالهم من شر نكبتهم * وان اتاهم مواس منهم اضطجعوا
قد قيظ الله فيهم من يحق له * ان يقتدى فاستخفوه فما انتفعوا
يسعون بالجهل عكسا في مقاصدهم * ويخربون ولا يدرون ما صنعوا

كانهم وعصير الجهل يخذلهم * قوم سكارى على الاعتاب قد صرعوا
نفوسهم في مهاوي الذل غائرة * لا يطلبون حياة لا ولا طمعوا
ويفهمون بان الدين منحصر * في صومهم او زكاة او اذا ركعوا
تراهم في الرخا اسدا غطارفة * ان حل خطب على اعقابهم رجعوا
لا بارك الله في قول بلا عمل * فانهم بحديث الليل قد ولعوا
قد غيروا في كثير من محاسنهم * فغير الله عنهم كلما ابتدعوا

* * *

كم ليلة بتها والله يشهد لي * مفكرا في مصير القوم اذ هجعوا
لا يطرق النوم جفني ابتغي لهم * مجدا ولست بذل العيش اقتنع
ترى يراعي على القرطاس معتكفا * يذود عن حوضهم حينا ويخترع
اذا مضى الليل وانجالت كتائبه * واقبل الصبح بالانوار يجتمع
اصيح فيهم بصوت عز قائله * الا حياة بها في الناس نرتفع
فمزقوا الجهل وانجوا من مخالبه * فالجهل بالعلم والتفكير ينقطع
فحيثما كنتم ولوا وجوهكم * وجهد كم شطر شمس العلم واندفعوا
لا تفتئوا طالبين المجد انصحكم * فالمرء قهرا على ما هم ينطبع
كررت قولي مرارا غير مقتنع * بخطبة او بشعر او بما يسع
ولا وسيلة الا جئت اعرضها * عليهم كي تنجيهم اذا فزعوا
فظن جهلا باني لست صادقهم * فما افادهم قولي ولا سمعوا

على انه لم تكن الخيبة وحدها نصيبه بل قد رموه بالطيش والتهور وطلب المستحيل والوقاحة والتخليط وآخر سهم في الكنانة قولهم انه يطلب الشهرة لا غير. وهنا راى العزلة اقوم والسكوت اسلم. ولسان حاله يقول:

رأوني انادي بالنهوض وانني * الح عليهم في الحديث مطولا
فظنوا باني جئت طالب شهرة * لكي يصنعوا لي في الكواكب هيكلا
ولم يعرفوا قلبي ونفسي وهمتي * واني ارى ما لا يرون تعقلا
خلقت وفي نفسي ثلاث فضائل * اباء وصدق والطموح الى العلا
فلا بارك الرحمان في العلم ان اتى * الي ولم اسلك طريقا موصلا
ولا عظمت نفسي ولا عز شانها * اذا انا لم ارفع فعالي تجملا
ولا بات قلبي في المكارم راتعا * اذا لم يكن بالنائبات محجلا
ارى همتي شرا علي ولعنة * اذا هي لم ترفع من المجد منزلا
فتلك خصال صيرتني مطالبا * لحق بلاد بات حقا معطلا
اشد عليها بالنواجذ جازما * بان حياتي بعدهن من البلا
فلا انثني والله والقبر فاغر * اذا دام شعبي بالهوان مكبلا

نعم يحق له ان يرفع فعاله تجملا وهو القائل:

ولي همة والله يعلم انها * ترى الذل موتا والخنوع غلولا
تسامت فرامت كل عز وسؤدد * فامسيت مما تبتغيه ضئيلا
تريد حياة تملا الكون رعبة * وتترك مجدا للبلاد اثيلا
ترى في نفوس الناس شرا مجسما * فتصفح صفحا عن خصومي جميلا
وكل فتى مثلي يروم سعادة * فلا بد يوما ان ينال جزيلا

تمت المرحلة الاولى باختصار ويليها ان شاء الله المرحلة الثانية وهي اوسع دائرة والحمد لله اولا وآخرا وصلى الله على سيدنا محمد وآله.